



اتجاهات الهجاء في شعر دعبيل الخُزاعي، دراسة تحليلية

م.م. محمود شاكر محمود
الكلية التربوية المفتوحة- فرع الدجيل
shmahmood909@gmail.com

المُلخَص:

يكشفُ البحثُ الموسومُ ب(اتجاهات الهجاء في شعر دعبيل الخُزاعي، دراسة تحليلية) عن صورةٍ مُشرقةٍ من صور الإبداع الشعري في ثرائنا الأدبي العربي الخالد، تلك الصورة التي تبلورت ملامحها في جانب الهجاء عند شعراء العصر العباسي عمومًا، وفي شعر دعبيل الخُزاعي المُلقب ب(شاعر آل البيت) على وجه الخصوص، حيثُ تفرّد شعره بتنوع اتجاهات الهجاء، وتعدّد صورهِ الفنيّة، في فترةٍ مثلَ فيها هذا الغرضُ الشعريّ توجّهًا مقصودًا في التعبير الفنيّ، كشفنا النقاب عن أبرز مضامينه.

الكلمات المفتاحية: العصر العباسي-دعبيل الخُزاعي- الهجاء- الشعر السياسي.

Trends in satire in the poetry of Di'bil al-Khuza'i: An analytical study

A.L. Mahmoud Shaker Mahmoud
The Open Educational College – Al-Dujail
shmahmood909@gmail.com

Abstract:

The research entitled (Trends of Satire in the Poetry of Di'bil al-Khuza'i: An Analytical Study) reveals a bright image of poetic creativity in our immortal Arab literary heritage. This image crystallized its features in the aspect of satire among the poets of the Abbasid era in general, and in the poetry of Di'bil al-Khuza'i, nicknamed (the poet of the family of the Prophet), in particular, as his poetry was distinguished by the diversity of satirical trends and the multiplicity of its artistic images, in a period in which this poetic purpose represented an intentional direction in artistic expression. We have uncovered its most prominent themes.

Keywords: Abbasid era—Dibil al-Khuza'i—Satire—Political poetry.

المُقَدِّمَةُ

الحمدُ لله مُستحقّ الثناء والحمد، حمدًا كثيرًا طيبًا مُباركًا فيه، كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، والصلاة والسلام على خير الأنام مُعلمنا وقائدنا، سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، الذي وضع أمة الإسلام على طريق العلم والحضارة، وسنّ لها أسباب الرّفعة والارتقاء، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين.
وبعد...

فلو كان الحديث عن مدينة غير مدينة الكوفة؛ لاحتاجت الى وقفة تعريفٍ طويلة، ولو كان غير القرن الهجري الثاني لاحتاج الى وصف؛ ولكن عندما يجتمع الأمران، فإننا نستغني عن كلّ حديث، فما أبرز صورة الكوفة في ذهن كلّ مُتصلٍ بالثقافة في القرون الأولى.



إنَّ الشَّعْرَ الَّذِي تَوَافَرَتْ فِيهِ عَوَامِلٌ مَرصُودَةٌ فِي هَذَا الْقَرْنِ، وَالشَّعْرَاءَ الَّذِينَ قَامُوا بِنِظْمِ هَذَا الشَّعْرِ، جَعَلَتْ الْعَرَبَ وَغَيْرَ الْعَرَبِ مِنَ الْمُسْتَعْرَبِينَ يَنْتَبِهُونَ إِلَيْهِ، وَيَتَكَلَّمُونَ عَنْ شَكْلِهِ وَمُضْمُونِهِ.

كَانَ هَذَا الشَّعْرُ قَدْ أَشْتَدَّ عَوْدُهُ، وَارْتَفَعَ شِرَاعُهُ، فَهُوَ كَالشَّجَرَةِ الْوَارِفَةِ الظِّلَّ تَلْتَفُّ أَغْصَانُهَا، وَتَوْتِي ثَمَاراً شَهِيئَةً. كَذَلِكَ الشَّعْرُ وَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ فتراتٌ جُمُودٍ، مَبْعُثُهَا انشغالُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَانْحِرَافُهُمْ مِنْ انشادِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَسُوا فِيهِ تَأْرِيئاً لِلْعَصَبِيَّاتِ، وَبَاعِثاً عَلَى الْفَخْرِ وَالْحَمَاسِ، وَقَدْ أَصْبَحُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَا فِخْرَ بِغَيْرِ الْإِيمَانِ، وَلَا حَمَاسَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَلَمْ يَعْذُ هُنَاكَ شَكٌّ فِي قُدْرَةِ الشَّعْرِ عَلَى تَصْوِيرِ الْأَحْدَاثِ، وَتَمَكُّنِهِ مِنَ الْوَصُولِ إِلَى الزُّوَايَا الْبَعِيدَةِ الَّتِي لِاتِّصَالِ إِلَيْهَا أَقْلَامُ الْمُؤَرِّخِينَ، أَوْ عِيُونُ الْبَاحِثِينَ الَّذِينَ تُمْلِي عَلَيْهِمْ جَسَامَةُ الْأَحْدَاثِ اغْفَالَ بَعْضَ الْجَوَانِبِ، وَالْوَقُوفَ عِنْدَ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ، فَهُوَ دِيْوَانُ الْعَرَبِ، وَالْمُقَيَّدُ لِأَيَامِهَا، وَالشَّاهِدُ عَلَى أَحْكَامِهَا⁽¹⁾، وَهُوَ فِخْرُهَا الْعَظِيمُ.

وَلَمْ يَعْذِ الْحَدِيثُ عَنْ أَمِّيَّةِ الشَّعْرِ فِي مَجَالَاتِهِ الْمُنْتَوِعَةِ غَرِيباً عَلَى أَسْمَاعِ الدَّارِسِينَ وَالْمَهْتَمِينَ بِالشُّؤُونِ الْإِبْدَاعِيَّةِ الَّتِي تَلَاخُقُ التَّمْيِيزَ وَالتَّقَرُّدَ، وَتَسْعَى مِنْ أَجْلِ الْوَصُولِ إِلَى الْجَزْئِيَّاتِ الَّتِي تَتِمُّ فِي تَكْوِينِهَا الصُّورَةَ، وَتَهَيِّئُ الْإِطَارَ الْعَامَّ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ تَدْرَسَ مِنْ خِلَالِهِ تِلْكَ الْإِتْجَاهَاتِ؛ فَالشَّعْرُ صُورَةٌ الْحَدِيثِ، وَدَلِيلُ الْحَقِيقَةِ، وَالْوَاجِهَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَعْطِيَ التَّفَاصِيلَ.

وَهُنَا يَكشِفُ الْبَحْثُ اتِّجَاهَاتٍ عَدِيدَةً فِي غَرَضِ الْهَجَاءِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ، الْوَقُوفَ عَلَيْهِ، أَوْ الْإِهْتِدَاءَ إِلَيْهِ وَهَذَا مَا دَفَعَ كَثِيراً مِنَ الْبَاحِثِينَ إِلَى الْاسْتِدْلَالِ بِهِ وَالْاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَالْإِنْتِفَاعَ مِنْ بَعْضِ مَا وَرَدَ فِيهِ؛ لِتَوْضِيحِ مَا كَانُوا يَرِيدُونَ الْوَصُولَ إِلَيْهِ.

وَالرَّجُلُ الَّذِي أَكْتَبَ عَنْهُ هُوَ شَاعِرٌ مَشْهُورٌ، عَمَرَ قَرْنًا مِنَ الزَّمَنِ، وَعَاشَ فِي عَصْرِ إِزْدَهَرَتْ فِيهِ التَّقَافَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَانْتَشَرَ الْعِلْمُ، وَكَثُرَتْ مَجَالِسُ الْأَدَبِ.

هَذَا الرَّجُلُ هُوَ دَعْبِلُ بْنُ عَلِيِّ الْخُرَاعِيِّ، تَنَقَّلَ فِي أَرْجَاءِ الْبِلَادِ؛ وَلَكِنَّهُ قَضَى الشُّطْرَ الْأَكْبَرَ مِنْ حَيَاتِهِ فِي بَغْدَادَ، وَقَدْ عَاصَرَ وَشَهِدَ ثَوْرَاتِ الْعَبَّاسِيِّينَ وَالْعُلُوْبِيِّينَ مِنْ شَيْعَةٍ وَخَوَارِجٍ، وَمِنْ خَارِجِينَ عَلَى نِظَامِ الْحَكْمِ، وَقَدْ اتَّخَذَ مِنْذُ نَشَأَتِهِ الْأُولَى مَبْدَأً سَارَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَحْدَ عَنْهُ طَوَالَ عُمُرِهِ، هَذَا الْمَبْدَأُ يَقُومُ عَلَى مَنَاصِرِ آلِ الْبَيْتِ-عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَإِبْرَازِ حَقِّهِمْ فِي الْخِلَافَةِ، وَقَدْ دَفَعَهُ إِلَى مُخَاصَمَةِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَكُلِّ مَنْ وَقَفَ فِي الصَّفِّ الْمُعَادِي لِآلِ الْبَيْتِ.

وَقَدْ اقْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْمَوْضُوعِ اعْتِمَادَ الْمَنْهَجِ التَّحْلِيلِيِّ الْوَصْفِيِّ، وَتَقْسِيمَ الْبَحْثِ بَعْدَ مَقْدَمَتِهِ، إِلَى تَمْهِيدٍ، وَمُحَوَّرِينَ رَئِيسِينَ؛ وَفَقاً لَخُطَّةٍ مَعْتَمَدَةٍ، نَوْجُهَا بِالْآتِي:

التَّمْهِيدُ: السِّيْرَةُ الْمُشْرِفَةُ لِشَاعِرِ آلِ الْبَيْتِ (دَعْبِلِ الْخُرَاعِيِّ).

الْمُحَوَّرُ الْأَوَّلُ: مَنْظُومَةُ الْهَجَاءِ فِي شِعْرِ دَعْبِلِ الْخُرَاعِيِّ، مُقَابَرَةٌ مَفَاهِيمِيَّةٌ تَعْرِيفِيَّةٌ

الْمُحَوَّرُ الثَّانِي: اتِّجَاهَاتُ الْهَجَاءِ فِي شِعْرِ دَعْبِلِ الْخُرَاعِيِّ، تَحْلِيلٌ لِنَمَازِجِ تَطْبِيقِيَّةٍ.

¹ يُنظَرُ: الْعَقْدُ الْفَرِيدُ: ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، ج ٥ / ٢٦٩.



يعقب هذين المحورين جملةً من النتائج المستخلصة في رحلة البحث، والتي ارتكزنا فيها على أمات المتون الأدبية في الشعر والنثر العربي، فكانت عدتنا الأولى القوية هي ديوان الشاعر المجموع والمحقق والمقدم له من قبل السيد عبد الصاحب عمران الدجيلي، ط ١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢م.

وجدير بالذكر هنا التنويه إلى أن الديوان قد حقق غير مرة، وقد اعتمدت الديوان بهذا التحقيق في سرد المعلومات الخاصة بالشاعر وحياته، وأما الديوان بتحقيق د. إبراهيم الأميوني، فقد كان المعتمد في أثناء الدراسة التحليلية التطبيقية، فضلاً عن العديد من المصادر والمراجع المعتمدة في التوثيق لمضمون ومادة البحث العلمية، ختمنا بها بحثنا وفق ثبت توثيقي مسرد.

هذا جهد المقل، المعترف بالتقصير، أضغه بين أيدٍ أمينة، لأدعي فيه الكمال، ولا السلامة من زلات البيان، فلكل مجتهد نصيب، فإن ألك قد وفقت فمن الله وحده، وإن تكن الأخرى فمن نفسي، وحسبي أي حاولت، ولم أدخر في سبيل هذه المحاولة جهداً وسيعاً، وأخلصت - من قبل ومن بعد - النية لله، وعليه قصد السبيل أسأله في عليائه أن يتقبله منا خالصاً لوجهه الكريم، طمعاً في مرضاته، وأن يجعله شافعاً لنا يوم نلقاه، نافعاً لمن يبتغي التروء، والرفعة في الدين والدنيا.

والحمد لله رب العالمين.

التمهيد: السيرة المشرفة لشاعر آل البيت (دعبل الخزاعي)

يكشف التتبع والرصد الدقيق في متون كتب التاريخ، وما ورثناه عن علمائنا الأسلاف من صور مغرية جذابة تتراقص بين صفحات التاريخ ودفتي الإرث الكبير من سير أدبية عطرة، نقف لها إجلالاً وتقديراً، لا تكاد عدسة العين تلتقط غيرها من صور.

وقد استقرت الرؤية على أنموذج سام، وشخصية أدبية فذة لعبت السياسة والتاريخ في تكوينها، وتغيير اتجاهاتها، إذ إن جُل ما قدمه المؤرخون القدامى ونفذة التاريخ من تراث هي حوادث مستوحاة من واقع قصور الخلفاء، ودواوين وزراءهم؛ فقد يطنب المؤرخون فيسهبون في الأطناب، وقد يوجزون فيعطونا رشفة من نهر عذب، وقد يعربب التاريخ رجلاً فيرفعه، و يعجم آخر فيهوي به إلى الحضيض؛ تنفيذاً لرغبات الأسياد، ودعماً لعروشهم، وتأسيساً على ما سبق، وللغرض نفسه فقد أجمع النقاد، واتفق المؤرخون على تلب الشاعر العلوي دعبل الخزاعي، والخط من كرامته، وتشويه ماله من صفحات في التاريخ، ولم يقس النقاد. ويتجنى المؤرخون على مكانته التي تستلزم الصدارة في التاريخ إلا لكونه من الحزب المناوئ لحزبهم، ومن أقطاب حزب المعارضة⁽²⁾ لسااستهم والتنديد بسياستهم التي تخالف المنهج الذي جاء به الإسلام، والذي بواهم مقعد الخلافة، وعرش السلطان، إذ كان دعبل ينزغ بميوله السياسية نزعة علوية، ويدين بولاء آل البيت. عليهم السلام- تدفعه عقيدة دينية راسخة تمثل نقطة الارتكاز ومحور الدائرة. وكان دعبل الخزاعي يجهر بأرائه، ويصرح بعقيدته هذه دونما خوف أو رهبة، بعيداً عن المراوغة والمداهنة ومصانعة السلطان، وتحقيقاً لرغباته السياسية وتماشياً وميوله الحزبية يجار بعقيدته التي تلزمه نقد الخليفة نقداً لا دعماً⁽³⁾.

⁽²⁾ يُنظر: الأغاني، ج ١٨ / ٣١، وعصر المأمون، ج ٣ / ٢٥٦.

⁽³⁾ يُنظر: وفيات الأعيان، ج ١١ / ٥١٩، والأغاني، ج ٢٠ / ٩٠.



وحياة مثل هذه ثائرة تكون مضطربة ولا شك، محدقة بالخطر وبطش السلطان؛ فأخذ العدة وحمل خشبته على ظهره خمسين عاماً ليصلب عليها، كما روى ذلك صاحب الاغاني، وابن خلكان، وغيرهما كثير من رواة التاريخ، وقد كاد أن يكون الاجماع على هذه الرواية.⁽⁴⁾

وهذا ابن خلكان يحدثنا، فيقول: ((كان دعيل شاعراً مجيداً إلا أنه كان بذيء اللسان من دونهم مولعاً بالهجو والحط من اقدار الناس؛ فهجا الخلفاء فمن دونهم وطال عمره)).⁽⁵⁾

وحق لهذا الشاعر الثائر الجريء الذي يغلي كالمرجل أن يحمل أداة إعدامه على ظهره؛ تنفيذاً لحكم الإعدام فيه ساعة شاء الخليفة ذلك. وكيف لا؟ بل كيف يأمن الموت، ويطمئ في السلامة من يهجو الرشيد في قبره، والمأمون في دست الحكم؟ فيقول في قصيدة من البحر البسيط، قافية الرأء:⁽⁶⁾

وَأَيْسَ حَيٍّ مِنَ الْأَحْيَاءِ نَعَلَمُهُ
إِلَّا وَهُمْ شُرَكَاءَ فِي دِمَائِهِمْ
قَتْلًا وَأَسْرًا وَتَحْرِيقًا وَمَنْهَبَةً
قَوْمٌ قَتَلْتُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَوْلَهُمْ
مَنْ ذِي يَمَانٍ وَمِنْ بَكْرٍِ وَمِنْ مُضَرٍ.
كَمَا تَشَارِكُ أَيْسَارًا عَلَى جُزْرِ.
فَعَلَّ الْعُرَاةَ بِأَرْضِ الرُّومِ وَالْحَزْرِ.
حَتَّى إِذَا اسْتَمَكْنَا جَاؤُوا عَلَى الْكُفْرِ.

والذي نريد إثباته هنا هو أنه لم يتغير عن مبدئه، ولم ينحرف عن مذهبه رغم المخاطر التي واجهته؛ بل شق طريقه بجرأة إلى تحقيق كفاحه ضد السلطة الحاكمة؛ لأنه من قبيلة خزاعة التي عرفت بالولاء التام لآل البيت- عليهم السلام- إذ تحالفت مع الرسول الأعظم في بداية دعوته، ويؤيده ما قاله معاوية بن أبي سفيان من ((أن خزاعة لو أمكن لانسائها محاربتنا لحاربتنا)).⁽⁷⁾

ولا ندري لماذا اتهمه أبو العلاء المعري بالتملق، وتشكك في عقيدته حيث يقول: ((وما يلحقني الشك في أن دعيل بن علي لم يكن له دين، وكل ما في الأمر أنه تظاهر في التشيع وتملق لآل البيت وإنما كان غرضه التكبُّ)).⁽⁸⁾

وتروي كتب الأدب العربي الإسلامي أن صديقاً لدعيل لأمه في هجاء الخلفاء، فقال له دعيل: دعني من فضولك، أنا والله أستصلب منذ سبعين سنة، ما وجدت من وجود خشبة!⁽⁹⁾

⁴ يُنظر: المصدر نفسه.

⁵ وفيات الأعيان، ج ١١ / ٩٤.

⁶ ديوان دعيل بن علي: ص ١٥٦.

⁷ وقعة صفين: المنقري، ص ٢٤٧.

⁸ رسالة الغفران: أبو العلاء المعري، الطبعة: تج: الدكتورة عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص ٢٠٧.

⁹ يُنظر: وفيات الأعيان: ١٠ / ١١٢.



وفي حين نقرأ ذلك عن دَعْبِل، فإنَّ وزير المعتصم والوائق العباسيين، الأديب والشاعر محمّد بن عبد الملك الزيات (ت ٢٣٣هـ-٨٤٧هـ) حين قيل له: ((لَمْ لا تجيب دعبلاً عن قصيدته التي هجأك فيها؟ قال: إنَّ دعبلاً حَمَلْ خشبته على عنقه يدور بها، يطلب من يصلبه بها، وهو لا يبالي)).⁽¹⁰⁾

فمن يا ترى هذا الشاعر؟

ولم يحمل خشبة صلبه على كتفه يبحث عمّن يصلبه بها؟

وما أسباب ما عُرف عنه من هجاء مقدّح لم يسلم منه أحدٌ من الخلفاء، الذين عاصروهم: هارون الرشيد، محمد الأمين، المأمون، المعتصم، والمتوكّل؟ كما لم يسلم منه وزراء هؤلاء الخلفاء؟

أولاً: اسمه ونسبه ومولده

اختلف المؤرخون في ذكر اسم دَعْبِل وكنيته ونسبه، فمنهم من قال: إن دعبلاً لقب، وأن اسمه الحقيقي (الحسن)، ومنهم من قال: أن اسمه (محمّد)، وكنيته (أبو جعفر)، وقد ورد في الأغاني أن كنيته (أبو علي)⁽¹¹⁾، و دَعْبِلُ معناه: الناقة القوية، وقيل: معناه الشيء القديم، وقيل معناه الناقة التي معها ولدها⁽¹²⁾، وأصل هذا اللقب كما ورد في الديوان نقلاً عن تاريخ بغداد أن دابته لقبته إياه لدعابة كانت فيه، فأرادت دعبلاً، ثم قلبت الذال دالاً⁽¹³⁾، وقد ورد في معجم الأدباء أن أصله من (قرقيسيا)، وأن أكثر مقامه ببغداد، وسافر إلى غيرها من البلاد حيث دخل دمشق ومصر، ومنهم من أورد أنه يماني الأصل، وقد ولد بالكوفة، وعاش فيها حتى سن الشباب.⁽¹⁴⁾

أما نسبه فقد جاء على ثلاثة أقوال:⁽¹⁵⁾

القول الأول: أن دَعْبِل بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الله بن بديل بن ورقاء، يرتبط نسبه بمضر أبو علي الخزاعي.

القول الثاني: دَعْبِل بن علي بن سليمان بن تميم بن نهشل بن خدّاش بن خالد بن عبد بن دعبل بن أنس ابن خزيمة بن سلمان بن أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن مزيقيا.

القول الثالث: دَعْبِل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي، الشاعر المشهور.

¹⁰ سببر أعلام النبلاء: الذهبي، ج ١١ / ٥١٩، ترجمة رقم (١٤١)، ط، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بيروت - لبنان، والأغاني: ج ٢٠ / ٦٩.

¹¹ يُنظر: ديوان دَعْبِل بن علي الخزاعي، جمع وتحقيق: د. إبراهيم الأميوني، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ص ١١٢.

¹² يُنظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ترتيب وتوثيق خليل شحاح، مادة (دَعْبِل).

¹³ يُنظر: المصدر نفسه.

¹⁴ يُنظر: الأغاني: ج ١٦ / ٢٩.

¹⁵ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، بيروت- دار إحياء التراث، الطبعة الأخيرة، (د.ت)، ج ١١ / ١٠٢.



وعلى اختلاف الروايات في اسمه، فإن المتفق عليه أن دِعْبِلًا خَزَاعِيُّ الأصل، أي من قبيلة خزاعة، وإن كان هناك من شكك في ذلك، وأدعى أنه مدخول النسب، إلا أن الروايات تذكر أنه من أقحاح خُزَاعَةَ، وذلك كما ورد في الديوان نقلاً عن صاحب الأغاني حديثاً بالتواتر جاء فيه: ((أن المأمون لما سأل أبا دلف أي شيء تروي لأخي خزاعة يا قاسم؟ فقال: وأي إخوة خزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال: ومن تعرف منهم شاعراً؟ فقال: أما من أنفسهم فأبو الشيص ودعبل ... وأما مواليتهم فظاهر وابنه عبد الله، فقال: ومن عسى في هؤلاء أن يسأل عن شعره سوى دعبل؟))⁽¹⁶⁾، ففي هذا دليل على صحة نسب دِعْبِلَ إلى خُزَاعَةَ.

وَلِدَ دِعْبِلُ سنة(١٤٨ هـ)، وتوفي سنة(٢٤٦ هـ)، ومع أن مكان ولادته لم يكن معروفاً، إلا أن الروايات تقول إنه إما من بغداد، أو من (قرقيسيا)⁽¹⁷⁾، وكان ينتقل في البلاد، وأقام في بغداد حتى خرج منها هارباً من المعتصم، وقيل إنه قدم دمشق، ومنها انتقل إلى مصر⁽¹⁸⁾.

أما أسرته: بيت آل رزين، فقد عرفت بالفضل والعلم والأدب، وقد عرف أكثرهم الشعر وقالوا فيه، فأبوه (علي بن رزين) كان شاعراً مجيداً، وقد نقل في الديوان عن المرزباني أنه ورد له بيتان من البسيط، على رواية ابنه دِعْبِلُ يقول فيهما:⁽¹⁹⁾

أَقُولُ لَمَّا رَأَيْتُ المَوْتَ يَطْلُبُنِي
بِالْيَتِي دِرْهَمًا فِي كَيْسِ صِيَّاحٍ
فِيَا لَهُ دِرْهَمًا طَأَّتْ سَلَامَتُهُ
لَاهَالِكَا ضَيْعَةً يَوْمًا وَلَا ضَاحٍ

نَشَاتُهُ:

أثرت الكوفة في تنشئة دِعْبِلَ حيث كانت مليئة بالأحزاب والتيارات والانشقاقات والحروب منذ العصر الأموي وحتى الثورة العباسية، ولذلك تأثر دِعْبِلُ بتيار الهجاء الذي غلب على شعره نتيجة لمواقفه السياسية والحزبية⁽²⁰⁾، وقضى دِعْبِلُ مدة شبابه في الكوفة حتى صار صبيهاً وأضحى يشار إليه بالبنان، وليس من شك إن الكوفة كانت شريكة البصرة -آنذاك- في الشهرة الأدبية، ومركز العلوم الدينية، ورجال الأدب، وكان أهل البيت -عليهم السلام- معروفين بالفضل والامجاد، والدين والورع، وأصحاب ثقافة أدبية ومنهم الاديب والعالم والشاعر⁽²¹⁾.

عمر دِعْبِلُ قرناً كاملاً من الزمن، قضاه في كفاح وصراع مع السلطة الحاكمة، وعاش مشرداً مهدداً؛ لكنه سجّل صفحات بطولية في التصدي والمواجهة الشعريّة، وقد كتب له أن يموت شهيداً مصلوباً على خشبة كما أراد⁽²²⁾.

16 (الأغاني: ٤٥ / ١٩).

17 (ينظر: الأدب في عصر العباسيين: محمد زغول سلام، الإسكندرية، منشأة دار المعارف، ١٩٩٣م، ص ٥٤٩).

18 (ينظر: المصدر نفسه).

19 (الديوان: ٢٣٦).

20 (ينظر: معجم الشعراء في معجم البلدان: كامل الجبوري، لبنان- مكتبة ناشرون، ٢٠٠٢م، ص ٢٦٧).

21 (ينظر: الأغاني: ج ١٨ / ٢٩).

22 (ينظر: المصدر نفسه: ج ١٨ / ٣٠).



ويُقال أنّ دِعْبِلًا تتلمذَ على يدِ مُسلمِ بنِ الوليدِ الشّاعرِ المعروفِ بصريعِ الغواني المتوفى سنة ٢٠٨ هـ، ويذكر المؤرخون أنّ مسلماً هو الذي شجّع دِعْبِلًا على قولِ الشعر⁽²³⁾، فعاشَ دِعْبِلٌ حياته الطويلةَ في ظلِّ الدولة العباسية، وحُكْمِ بني العباس، حيث عاصرَ مجموعةً من الخلفاءِ هم:

- ١- هارون الرشيد: (١٧٠-١٩٣).
- ٢- عبد الله المأمون: (١٩٨-٢١٨).
- ٣- محمد المعتصم: (٢١٨-٢٢٧).
- ٤- هارون الواثق: (٢٢٧- ٢٣٢).
- ٥- جعفر المتوكل: (٢٣٢- ٢٤٧).

وممّا تجدرُ الإشارةُ إليه أنّ دِعْبِلًا كانَ كثيرَ التنقلِ والسفرِ والترحالِ فقد سافرَ من الكوفةِ إلى بغدادَ في أيامِ الرّشيدِ بعد أن طلبَ الرّشيدُ حضوره، وتوارى دِعْبِلٌ عن المُعتصمِ أكثرَ أيامَ حياته، وقد هجا دِعْبِلٌ الخلفاءَ الذين عاصرهم، كما تتضحُ معاصرةُ دِعْبِلٍ لخمسةٍ من أئمةِ أهلِ بيتِ النبيِّ محمد(ﷺ)، وهم: الإمامُ جعفر بن محمّد الصادق، الإمامُ موسى الكاظم، الإمامُ عليّ الرضا، الإمامُ محمد الجواد، والإمامُ علي الهادي -عليهمُ السّلامُ.

وعلى الرغمِ من معاصرتهِ لأولئك الأئمة، إلا أنّ الباحثين الذين كتبوا عن دِعْبِلٍ وعصره لم يتحدثوا عن اتصالِ هذا الشّاعرِ بغيرِ ثامنِ أئمةِ أهلِ البيتِ علي بن موسى الرضا -عليه السّلامُ- وليس من تفسيرِ لذلك في المصادر التي بين يدينا، غيرُ أن المتنبِّحَ لحالةِ الحصارِ الخانقةِ التي عاشها أئمةُ أهلِ البيتِ قبلَ الإمامِ الرضا وبعده يستطيعُ أن يفسّرَ سببَ عدمِ اتصالِ دِعْبِلٍ بهم، فيما تنفّسَ الصعداءُ أنصارُ أهلِ بيتِ النبيِّ(ﷺ) وموالوهم ولو بشكلِ نسبيّ - إبانَ تسلّمِ الإمامِ الرضا ولايةَ عهدِ المأمون.

عَقِيدَةُ دِعْبِلِ الْخَزَاعِيِّ

ينتمي دِعْبِلٌ في نسبه إلى قبيلة خزاعة المعروفة بولائها للعريق للإسلام ولرسول الله (ﷺ)، ولأهل بيت الرسول (ﷺ)، فعبده بن بديل بن ورقاء، الجد الأكبر لدعبل، كان هو وأخوه عبدالرحمن رسول الله محمد (ﷺ) إلى اليمن⁽²⁴⁾، وكانا وشقيقهم عثمان من فرسان جيش الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في (صقّين)⁽²⁵⁾، أمّا الأخ الرابع لعبد الله بن بديل: نافع بن بديل (كان قديم الإسلام)، واستشهد على عهد النبي (ﷺ)⁽²⁶⁾، الذي قتله أهل نجد حين بعثه الرسول محمد(ﷺ) مع سبعين رجلاً من خيار المسلمين.⁽²⁷⁾

²³ يُنظر: وفيات الأعيان: ج ٦ / ١٠٢.

²⁴ يُنظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ج ٤ / ١٨، ترجمة رقم (٤٥٧٧).

²⁵ وقعة صفين: المنقري، ١٠٢، ط ٢، المؤسسة العربية.

²⁶ الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٦ / ٣١٩، ترجمة رقم (٨٦١٧).

²⁷ يُنظر: المصدر نفسه.



عاش دِعْبِلٌ وتربى في أجواء أسرة موالية لأهل البيت، ومحبة لها، وعلى الرغم من كل الصور المشوهة التي نسجها بعض المؤرخين حول شخصية دِعْبِلٍ⁽²⁸⁾، إلا أن أحداً لم يستطع أن يطعن في عقيدة دِعْبِلٍ، ولا أن يتهمه بالإنحراف عن ولانته لأهل البيت. ويتجلى هذا الوفاء - من ضمن ما يتجلى - في مدحه للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - في قصيدة لم يبق منها سوى هاذين البيتين من البحر الوافر:

وَكَانَ سِنَانُهُ أَبَدًا ضَمِيرٌ فَلَيْسَ لَهُ عَن الْقَلْبِ إِقْلَابُ
وَصَارُمُهُ كَبِيعَتِهِ بِخُمٍ (29) فَمَوْضِعُهَا مِنَ النَّاسِ الرَّقَابُ

إن قراءةً للنزير اليسير مما وصل إلينا من شعر دِعْبِلٍ الخُرَاعِيّ قياساً إلى سنوات عمره التي امتدت إلى ما يقارب القرن؛ يمكن أن تعكس بجلاء وجهة نظره العقيدية في الولاء لأهل بيت النبي محمد (ﷺ)؛ بل أن شعره يتمحّض في مدح أهل البيت، وفي هجاء الأمويين والعباسيين وسواهم، يقول الشيخ كامل محمد عويضة في دراسته عن الصورة الفنية عند دِعْبِلٍ: ((يعكس شعر دِعْبِلٍ وجهة نظره العقائدية في فهم التشيع، والتعبير عن سماته الفكرية باعتباره عقيدة مقدّسة ووجهة نظر ملتزمة... كذلك يتصل بفكرة التشيع عند دِعْبِلٍ كثير مما آمن به المسلمون الشيعة من إمامة علي بن أبي طالب، وأحقية بنيه في الخلافة، فلم يكن دِعْبِلٌ متطرفاً أو مغالياً في فكره؛ بل استمدت الصورة الشعرية لديه عناصرها من الواقع ومن التاريخ الإسلامي، مؤيداً صورته بنصوص من القرآن الكريم والحديث)).⁽³⁰⁾

ثانياً: أساتذته وتلاميذه

أوردت المصادر الموثوقة أنّ دِعْبِلَ الخُرَاعِيّ حدّث عن المأمون، ومالك بن أنس، ويُقال: إنه حدث عن يحيى بن سعيد الأنصاري، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، وسالم بن نوح، ومحمد بن عمر الواقدي، وجماعة سواهم.⁽³¹⁾

ومن مشايخه في الأدب:

مُسلم بن الوليد تخرّج عليه وتعلّم منه، وفي لسان الميزان له رواية عن مالك، وشريك والواقدي، والمأمون، وعلي بن موسى الرضا⁽³²⁾، ويقال إن له رواية عن شعبة، والثوري في تاريخ دمشق⁽³³⁾، روى عنه أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن موسى الترمذي، وأخوه إسماعيل، ومر أن أحمد بن القاسم روى عنه قصيدته التائية، وفي الأغاني أنه خرج الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث الذي قال أبو الفرج عنه إن دِعْبِلًا كان

²⁸ يُنظر: التطور والتجديد في شعر دِعْبِلٍ: حسان علي الحسن، ص 67.

²⁹ حُم: غدير معروف بين مكة المكرمة والمدينة المنورة بالجحفة، وفيه قال رسول الله للإمام علي بن أبي طالب: ((من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه))، سبّح أعلام النبلاء، الذهبي: ج 1/ 126.

³⁰ دِعْبِل بن علي الخُرَاعِيّ، الصورة الفنية في شعره، محمد كامل عويضة، ط. دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان (1413هـ- 1993م، ص 132-133) (بتصرف).

³¹ يُنظر: دراسات في تاريخ العرب العصر العباسي الأول، سالم السيد عبد العزيز، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1993م، ص 141.

³² يُنظر: الشعر والشعراء في العصر العباسي، مصطفى الشكعة، بيروت: دار العلم للملايين، ص 247.

³³ يُنظر: تاريخ دمشق: ابن عساکر، ج 3/ 421.



مؤدبه قديماً. وفي لسان الميزان روى عنه أخوه علي بن علي، ولم يذكر رواية أخيه إسماعيل عنه، وقد مر عن النجاشي أنه يروي عنه موسى بن حماد اليزيدي، وعن جامع الرواة أنه نقل رواية علي بن الحكم عنه في باب مولد أبي جعفر الثاني من الكافي.⁽³⁴⁾

ثالثاً: مكانته العلمية وآثاره الأدبية

يكاد يجمع مؤرخو الأدب أن لدعبل منزلة رفيعة في العلم والأدب، والشعر، والفضل، فقد كان شاعراً كاتباً، وناقداً، ومؤرخاً، ومحدثاً، وعالماً بالأدب، واللغة، وأيام العرب.

أما شاعريته فقد شهد له بها كل الذين أروا له، ففي حديث لمحمد بن القاسم بن مهرويه قال: قال لي البحري: ((دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد، فقلت له: وكيف ذلك؟ قال: لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم، وكان يتعصب له))⁽³⁵⁾، وكان الخليفة المأمون من أشد الناس إعجاباً بشعر دعبل وقوة شاعريته، وشهد له بذلك إذ قال: ((لله دره ما أغوصه، وأنصفه، وأوصفه))⁽³⁶⁾.

ووصفه ابن شرف القيرواني فقال: ((وكان شاعر علماء وعالم شعراء))⁽³⁷⁾، وجاء في الخلاصة: ((دعبل بن علي الخزاعي، أبو علي، الشاعر، مشهور في أصحابنا حاله، مشهور بالإيمان وعلو المنزلة، عظيم الشأن))⁽³⁸⁾.

ومما ذكر في تصنيفاته:

١ - ديوان شعر.

٢ - كتاب الواحدة في مثالب العرب ومناقبها .

٣ - كتاب طبقات الشعراء.

ولم يصلنا منها شيء.

ديوان شعره:

كان دعبل شاعراً أكثر، له شعر كثير مجموع في ديوان، وقد كان هذا الديوان مشهوراً في العصور السابقة؛ لكنه اليوم مفقود كما فقدت غيره من نفائس الدواوين الشعرية، فقد جاء في الأغاني عن الجاحظ أنه قال: ((سمعت دعبل بن علي يقول: مكثت نحو ستين سنة ليس من يوم ذر شارقه إلا وأنا أقول فيه شعراً))⁽³⁹⁾، وذكر صاحب الفهرست أن الصولي عمل ديوان دعبل في ثلاثمئة ورقة⁽⁴⁰⁾، نظم فيه جميع فنون الشعر، ومن الأسباب التي

³⁴ يُنظر: المصدر نفسه.

³⁵ الأغاني: ٣٧ / ١٨.

³⁶ تاريخ دمشق: ٥ / ٢٢٩.

³⁷ رسائل الانتقاد: ص ٢٤٩.

³⁸ الخلاصة: للعالم الجلي، ص ٧٠.

³⁹ الأغاني: ج ١٨ / ٤٥.

⁴⁰ يُنظر: الفهرست: لابن النديم، ص ٢٢٩.



أدت إلى إتلاف ديوان دِعِيل، أو فقده، القهرُ والظلمُ اللذين لاحقته السلطة بهما للقضاء عليه واضطهاده؛ لمهاجمته الخلفاء والحكام .

وذكرَ صاحبُ كشفِ الظنون أن ديوان دِعِيلِ الخُزاعيِّ يشتمل على قصائدَ ولطائفٍ⁽⁴¹⁾، وقال ابن عساكر له شعرٌ رائعٌ وديوانٌ مجموعٌ⁽⁴²⁾، وجاء في تراجم الشعراء أنه كان عند ولده الحسين من شعره ست مجلداتٍ ضخمةٍ في كل مجلدة ثلاثمئة ورقة⁽⁴³⁾، وذكر السيد محسن الأمين أن ديوانه كان موجوداً في القرن الماضي،⁽⁴⁴⁾ ومع كلِّ ما ذكر، لم يصلنا ديوانه، ولم يبقَ من شعره سوى أشتاتٍ مبعثرةٍ في أماكن متفرقةٍ من مصادرنا الأدبية والتاريخية، ومما لا بُدَّ من ذكره هنا أنَّ شعرَ دِعِيلِ بقيَ مُشتتاً في صفحاتِ الكُتبِ الأدبية، منها والتاريخية، ومن أشهر قصائده، تلك القصيدة المعروفة بالتائيّة، جاءت في مدح أهل البيت - عليهم السّلام - مطلعها:⁽⁴⁵⁾

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحِيٌّ مُقْفَرُ الْعَرَصَاتِ

ولم يبقَ أديبٌ، أو مؤرِّخٌ أو شاعرٌ إلا وذكرَ بعضاً من أبياتها؛ بل وصفها بعضهم بأنّها من أحسن الشّعير، وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت، وكتبها فيما يُقال على ثوبٍ وأحرم فيه، وأمر أن يكون في أكفانه. وقد جمع السيدُ محسنُ الأمينُ قسماً من شعره جاء في مئة وثلاث صفحاتٍ متضمنةً جملةً من أخباره⁽⁴⁶⁾، كذلك جمع الشيخُ محمد السماوي شعره، وما يزالُ هذا المجموع محفوظاً في تركته في النجف⁽⁴⁷⁾، ولعلَّ أولَ من حقّقَ ديوانه هو الدكتور محمد يوسف نجم، أحدُ أساتذة اللّغة العربيّة وآدابها في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وقد وفق إلى جمعٍ مننينٍ وثلاثين قطعةً، وأربعة أنصافِ أبياتٍ واثنتين وثلاثين قطعةً مما نسبَ إليه وإلى غيره من الشعراء⁽⁴⁸⁾، كما بذلَ السيدُ عبد الصاحب الدجيلي مجهوداً كبيراً في البحثِ والتنقيبِ عن شعر دِعِيلِ، ثم أصدره في ديوانٍ تضمن (١١٧٦ بيتاً)، منها: (١٠٢٤ بيتاً) صحّت نسبتها إليه، و(١٢٥ بيتاً) من الشعر الذي نسبَ إليه وإلى غيره⁽⁴⁹⁾، وقد اعتمدنا على هذين الديوانين في دراستنا التحليليّة هذه.

رَابِعاً: نِهَآيَةُ الرَّحَلَةِ

كانت نهاية دِعِيلِ - بالطبع - مؤلمة جداً! وكانت هذه النهاية متوقعةً، توقعها نفسه قبل عشرات السنين من حياته، كما توقعها غيره، فقد أوردت المصايرُ روايتين غريبتين لوفاته، لاجماليّ لدحضهما هنا بالدليل القاطع، ونكتفي

41) كشف الظنون: ج ١ / ٧٨٩.

42) تاريخ دمشق: ج ٥ / ٢٢٩.

43) يُنظر: ديوان دِعِيلِ الخُزاعيِّ، تحقيق: محمد يوسف نجم، ص ٦.

44) أعيان الشيعة: ج ٣٩ / ٣٢٠.

45) ديوان دِعِيلِ الخُزاعيِّ: تحقيق الدجيلي، ص ١١٤.

46) طبع هذا المجموع بمطبعة الإتيقان في دمشق، سنة (١٣٦٨ هـ)، وكان قد نشر في الجزء الثلاثين من أعيان الشيعة، من ص ٢٦٠ حتى ص ٣٥٩.

47) مجلة معهد المخطوطات: ٤ / ٢٢٨.

48) نشر في دار الثقافة، بيروت.

49) نشر في دار الكتاب اللبناني، بيروت.



بالقول أنّ التعذيبَ النفسيّ الذي عاناه في حياته الطويلة، ربما كان أشدَّ إيلاًماً، وأشقَّ احتمالاً، فكانت رحلته (سنة ٢٤٦هـ) بعدَ عُمرٍ قاربَ القرن، فقد ثبت أنه عاشَ (٩٨ عاماً) قضاها في التنقلِ والترحالِ، ومناوئة كل من وقفَ من آل البيتِ موقفَ الخصوم، وقد ماتَ قتلاً، وكان نبوءة أبي خالد الخزاعي قد صدقت حين سمعه يهجو الناس ويبيدي رأيه فيهم، ((قال: هذا -والله- مقال من لا يموت حتف أنفه)).⁽⁵⁰⁾

وكما اتفقَ أكثرُ المؤرخينَ في سنة ولادته، نراهم كذلك متفقينَ أن السنة المذكورة هي التي توفي فيها الشَّاعرُ، وقد رثاه البُحترِّيُّ في أبياتٍ من البحرِ الكاملِ، قافية اللّام -وكان دِعْبِلُ صديقه- وكان ابو تمام الطائيُّ قد ماتَ قبله، فأشارَ إلى وفاة دِعْبِلِ بالأهواز: ⁽⁵¹⁾

قد زاد في كَمَدِي وَأَضْرَمَ لَوْعَتِي مَثَوَى حَبِيبِ يَوْمَ بَانَ وَدِعْبِلِ
وَبَقَاءِ ضَرْبِ الْخُتَمِيِّ وَصِنْفِهِ مِنْ كُلِّ مَكْدُودِ الْقَرِيحَةِ مُجْبِلِ
أَهْلُ الْمَعَانِي الْمُسْتَحِيلَةَ رَنَ هُمْ طَلَبُوا الْبِرَاعَةَ وَالْكَلامِ الْمُقْفَلِ
أَخَوِّي لَا تَزَلْ السَّمَاءُ مُخِيلَةَ تَغْشَاكُمَا بِسَمَاءِ مُزْنِ مُسْبِلِ
جَدَّتْ عَلَى الْأَهْوَازِ يَبْعُدُ دُونَهُ مَسْرَى النِّعِيِّ وَرَمَّةَ بِالْمَوْصِلِ

المحور الأول: منظومة الهجاء في شعر دِعْبِلِ الخزاعي، مقارنة مفاهيمية تعريفية.

أولاً: مفهوم الهجاء، دوافعه، ومظاهره في شعر دِعْبِلِ الخزاعي

لقد كان الهجاء عند دِعْبِلِ أكثرَ الفنون الشعرية تطرّقاً، حيثُ يمثلُ الهجاء النسبة الأكبرَ في شعره، وبه اشتهرَ بين شعراء عصره؛ وقد بلغ مجموع القصائد ومقطوعات الهجاء (مائة وثمانين) قصيدةً ومقطوعةً من أصل (مائتين وسبع وتسعين) قصيدةً ومقطوعةً، وهذا يشكل أكثر من ٣٠ في المائة من مجموع تطرقه لبقية الأغراض الشعرية⁽⁵²⁾، هذا من جانبٍ ومن جانبٍ آخرٍ نجدُ أشعاراً هجائيةً مختلفةً تتداخلُ سائرَ القصائد؛ فلذلك لا غرابة إذا ما عرف دِعْبِلُ بين الشعراء والأدباء بالهجاء، وأصبح أحدَ أعلامه في العصر العباسي، ومن مفهوم الهجاء في اللغة والاصطلاح ننتقلُ في تقديم صورة تحليلية لأبرز النماذج الهجائية المرتكزة على معايير أسلوبية تم رصدها بدقة من خلال البحث والتنقيب عن اتجاهات الهجاء في شعر دِعْبِلِ الخزاعي.

مفهوم الهجاء لغةً:

⁵⁰ الأغانى: ج ٢٠ / ١٣١.

⁵¹ يُنظر: وفيات الأعيان: ج ١ / ١٨٠.

⁵² يُنظر: الجملة الطلبية في ديوان دِعْبِلِ الخزاعي، ص ١٣.



أثبتت المعاجم العربية لمادة (هَجَا) معانٍ لغويةً مختلفةً، فقد جاء في مختار الصحاح أن (الهجاء) ضدّ المدح وبابه عدا، وهجاً أيضاً، و(تهجاء) بفتح التاء فهو (مَهْجُوٌّ)، ولا تقل هجيتُهُ، و(هَجَوْتُ الحروف هجواً، وهجاءً)، و(هجيتها تهجيةً)، و(تهجيتها) كُلُّهُ بمعنى. (53)

وقد تناول هذه الدلالة الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب العين، فقال: ((هَجَا يَهْجُو هِجَاءً، ممدود: وهو الوقيعَةُ في الأشعار، والهجاءُ ممدودٌ: تهجئةُ الحروفِ، نقولُ: تَهَجَّأْتُ وَتَهَجَّيْتُ بِهِمْزٍ وَتَبْدِيلٍ)) (54)، والهجاءُ أيضاً السبُّ وتعديدُ المعاييبِ، ويكونُ في لشعرٍ غالباً، وكذلك تقطيعُ اللفظةِ إلى حروفها والنطقُ بهذه الحروفِ مع حركاتها، وحروفُ الهجاءِ ما تتركبُ منها الألفاظُ من الألفِ إلى الياءِ. وَالهَجَاءُ من يكثرُ سبُّ غيره، وتعديدُ معاييبه.

أما في مُعجم لسان العرب فقد وردت لهذه اللفظة مجموعةٌ من المعاني اللغوية مع العلم أنه لم يكن هناك معنىً شعري لها، أي إن المعاني التي أوردتها كانت بعيدةً عما هو معروفٌ من دلالةٍ توجيه كلمة هجاء في الشعر العربي فكانت المعاني ماديةً، وليست شعريةً. (55)

وكذا الحال في مُعجم تاج العروس من جواهر القاموس، فقد أورد الزبيدي معاني مختلفةً؛ لكنها ليست معاني شعرية، ومن خلال هذه المعاني نصلُ إلى أن لفظة (هَجَا) تدلُّ على معانٍ مختلفةً، شعريةً وغير شعريةً فصلت القول فيها متونُ المعاجم العربية. (56)

مَفْهُومُ الْهَجَاءِ اصْطِلَاحًا:

الهَجَاءُ: غرضٌ من أغراضِ الشعر العربي الرئيسية يهدفُ قائلُهُ إلى الطعن في خصمه والانتقاص منه من خلال نشر معاييبه على الناس، أو من خلال العمل على اختلاق معاييب يلصقها به للتقليل من قيمته.

والهَجَاءُ فنٌّ قديمٌ قدم عاطفة البُغْضِ والغضبِ والميلِ الفطريِّ إلى نقدِ النقائصِ والمعايبِ، فهو من الفنون الأدبية الغنائية التي عرفتها الآدابُ العالمية، ووجدت في الأدب العربي منذُ العصور الأولى، وهذا الوجود أمرٌ طبيعيٌّ، مرتبطٌ بوجود أناسٍ يستحقون الهجاء. وتأسيسًا على ما سبق نؤكد أن لهذا الفنَّ مجريين: شعريٌّ ونثريٌّ.

فإذا كانت الآثارُ الفنيةُ ومنها الهجاءُ تعبّرُ عن إفراغ طاقة عاطفية، فإنَّ الشاعرَ يلجأُ إليه ليعبر عما يجولُ بنفسه نحو شخصٍ من الأشخاص، أو جماعةٍ من الجماعات، وقفوا معه موقفًا لا يرضاه فيجدُ نفسه غاضبًا تأثرًا فيضطّرُّ أن يخفف عن طريقه ما يحسُّه في أعماقه، من ألمٍ مبرحٍ يشعرُ به نحو من آذاه فيحاولُ إيذاءه وإيلامه بكلِّ ما يتنافى مع الفضائلِ المعنوية التي تعارف عليها العربُ منذُ أمدٍ بعيدٍ، وامتدَّحوا بها كالكرم، والوفاء، والشجاعة، وغير ذلك من القيمِ الفاضلة التي كانوا يقيمون لها وزنًا كبيراً في حياتهم؛ لأنها كانت تدلُّ على مكارم أخلاقهم.

ويرتكزُ هذا الفنُّ على رسم صورةٍ مضحكةٍ معبرةٍ باللفظ من حركةٍ مثيرةٍ لافتةٍ؛ لإثارة المفارقات، وإبراز المعاييب، والتركيز على ما يكونُ شاذاً في الخِلقِ والخُلُقِ بهدفِ السخرية والتهمك وإثارة الضحك الواعظ.

53 يُنظر: كتاب العين، الفراهيدي، ج ٤، باب الهاء والجيم، ٣٤٥.

54 المصدر نفسه.

55 لسانُ العرب: ابنُ منظور، مادة (هَجَا)، مج ١/ ٢١٣.

56 تاجُ العروس، الزبيدي، ج ١/ ٢١٦، مادة (هَجَا).



يرى كولد زيهر- وهو أول مستشرق- قام ببحث جادٍ عن أهمية الهجاء الجاهلي وقيّمته الاجتماعية، ووصفه في أصله عبارة عن تعويذة أو لعنة، وان أصوله ربما تتصل باعتقادات قديمة تذهب إلى أن الجن تلهم الشاعر الهجاء، فيكون كلامه ذا قوة سحرية ذات تأثير لا يمكن تجنبه على الأشخاص والأشياء التي يوجه إليها الهجاء؛ فكان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري.⁽⁵⁷⁾

ويعرفه آرثر بولارد، فيقول: ((الهجاء مثل الوعظ يريد أن يحث ويقنع لكن موقفه تجاه من يخاطبهم أكثر دقة وصعوبة من موقف الواعظ)).⁽⁵⁸⁾

ثانياً: دوافع الهجاء في شعر دعبل الخزاعي

انطلاقاً من وصف الهجاء بالقوة الناطقة؛ وعده فتاً شعرياً، وغرضاً من أغراض الشعر عند العرب، فيه يجردُ الشاعرُ المهجور من القيم والمثل والأخلاق، ويكشف عن عيوبه ونقائصه بقصد أهانتها والازدراء به، فيطالعنا بوضوح كبير استفاضة شعر دعبل الخزاعي بهذا الغرض، تدفعه إلى ذلك العصبية الفردية القبلية، والسياسية، والاقتصادية مما يؤدي إلى نشوء الهجاء وتعدد ألوانه وأنواعه، ويُعدُّ الهجاء الشخصي من أقدم هذه الأنواع، فالمنازعات الفردية التي تثيرها العواطف والأهواء وتضارب المصالح بكل أشكالها تسبق زمن الخصومات القبلية والخلافات الجماعية والاضطرابات السياسية وتعارض المعتقدات الدينية.

وتبرز ظاهرة الهجاء في شعر دعبل الخزاعي بشكل يجعلها تطغى على بقية أغراضه من خلال أبيات شعره، وإذا كان الحطيئة قد هجا حتى نفسه حين نظر في البئر فقال:⁽⁵⁹⁾

أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه ففجّح من وجهه وقبح حامله

إذا كان الحطيئة يفعل ذلك؛ فإن دعبل الخزاعي لم يهج سوى خلفاء عصره وحواشيهم، ولم يكن هجاؤه للخلفاء والحاكمين عندئذ إلا بدافع ممنهجة، نوجزها بالآتي:

١- دوافع دينية، ترتبط بالعقيدة والمبدأ وموالاة أهل البيت عليهم السلام-، يقول الشيخ الأميني: ((وما يُنقم من دعبل الخزاعي من التوغّل في الهجاء في غير واحدٍ من المعاجم، فإنّ نوع ذلك الهجوم والسباب المُقذع فيمن حسبه أعداء للعترة الطاهرة، فكان يتقرّب به إلى الله وهو من المُقرّبات إليه سبحانه رُفَى، وإنّ الولاية لا تكون خالصة إلا بالبراءة ممّن يُضادّها ويعاندها، كما تبرأ الله ورسوله من المشركين، وما جعل الله لرجلٍ من قلوبين في جوفه، غير أن أكثر أرباب المعاجم من الفئة المتحيزة إلى أعداء هذا الشاعر، حسبوا ذلك منه ذنباً لا يُغفر كما هي عادتهم فيجّلّ رجالات الشيعة))⁽⁶⁰⁾ من الذين يكتبون تراجمهم في موسوعات الأدب، والفقهاء، والبلدان،

⁵⁷ اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري: حوليات كلية التربية والآداب، جامعة الكويت، ١٩٨٠م، السنة الأولى، العدد (١)، ص ١١.

⁵⁸ الهجاء: آرثر بولارد، ص ١١.

⁵⁹ يُنظر: الأغاني: ج ٢/ ١٣٦.

⁶⁰ الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الأميني، ج ٢/ ٥٢٢.



وغيرها، ((وعندما يتّجه دعبيل إلى هجاء السلاطين إنّما يكون بذلك قد مارس عملية دفاع مشروعاً عن (الحق)).⁽⁶¹⁾

ومن الشواهد التطبيقية على ذلك هجاؤه لهارون الرشيد، حيث تعودُ علاقةُ الشاعرِ دعبيلَ الخزاعيِّ بهارون الرشيد إلى بيت شعرٍ قاله دعبيلُ، وعُرف به، وهو قوله من البحر الكامل: ⁽⁶²⁾

لا تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحَكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

فَعَنَى بهذا البيتِ بعضُ المغنّين، وشاع، فَعَنَى بين يدي هارون الرشيد، فطرب وسأل عن قائل الشعر، فقيل له غلامٌ من خزاعة يقال له: دعبيلُ بن علي، فأرسل الرشيدُ خادمه إلى خزاعة، وأرسل له بعض المال قائلًا له: ((إذهب به إلى خزاعة فاسأل عن دعبيل، فإذا دُللت عليه، فاعطه هذا، وقل له: ليحضر إن شاء، وإن لم يحب ذلك فدعه، فسار الغلام إلى دعبيل وأعطاه الجائزة، وأشارَ عليه بالمصير إليه، فصار معه إليه)).⁽⁶³⁾

وفي قراءةٍ متأنيةٍ لرواية أبي الفرج هذه، يجد الباحث ضرورة البحث عن السبب الذي يدفع بهارون الرشيد لتقريب شاعرٍ تمتدُّ جذوره لأسرة موالية لشرعية الخلافة المتمثلة بعلي بن أبي طالب، ولقد حفلت الكُتُب التي تورّخُ لصفين ببطولات أجداد دعبيل وأعمامه وإخوته فيها، حتّى أنّ معاوية قال: ((إنّ نساءَ خزاعة لو قدرت على أن تقاتلني فضلاً عن رجالها لفلعت))⁽⁶⁴⁾، ودعبيل لم يخرج عن خط الولاء هذا؟

فلما بلغ الشاعر دعبيلَ أن الرشيد مات حتّ بكافاه على فعله بأقبح مكافأة، وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت - عليهم السلام - وهجا فيها الرشيد: ⁽⁶⁵⁾

يا أمة السوء ما جازيت أحمد في
وليس حي من الأحياء نعلمه
إلا وهم شركاء في دمانهم
قتل وأسّر وتحريق ومنهية
أرى أمية مغدورين إن قتلوا
أبناء حرب ومروان وأسرتهم
قوم قتلتم على الإسلام أولهم
حُسن البلاء على التنزيل والسور.
من ذي يمان ولا بكر ولا مضر.
كما تشارك أيسار على جزر.
فعل الغزاة بأرض الروم والخزر.
ولا أرى لبني العباس من عذر.
بنو معيط ولاة الحقد والوعر.
حتى إذا استمكنوا جازوا على الكفر.

وصفت هذه الأبيات بالجرأة، وصدق العزم، وشجاعة النفس، وقوة الايمان، وأقدم من ذكر ذلك أبو الفرج الاصبهاني الذي قرن اسم دعبيل بهذه الصورة الغربية ((هَجَاء، خبيثُ اللسان، لم يسلم منه أحدٌ من الخلفاء، ولا وزرائهم، ولا نو نباهة أحسن إليه، أو لم يحسن))⁽⁶⁶⁾، ونحا نحوَ أبي الفرج أكثر من وافى بعده فطبعوا لدعبيل نفس الصورة المشوهة! وقبل أن نبحت هذه الناحية الاعتدائية في نفس دعبيل، أو النفسية الشاذة المعقدة كما يراد

61 (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، البستاني، ص ٥٠٢).

62 ديوان دعبيل، ص ١١٧.

63 الأغاني: ج ٢٠ / ١٦٧.

64 وقعة صفين، ص ٢٤٧.

65 الديوان: بتحقيق الدجيلي، ص ١١٠.

66 معجم الأدباء: الحموي، ج ١١ / ١٠٢.



أن يقال عنه، لا بد لنا أن نقول: ((كَانَ دَعْبِلُ بَرْمًا بِالنَّاسِ كَثِيرَ الشُّكِّ فِيهِمْ، شَدِيدَ الْوَحْشَةِ مِنْهُمْ وَالسُّخْطِ عَلَيْهِمْ، يَرَى أَنْ غَالِبِيَّةَ هَؤُلَاءِ مِيَالُونَ إِلَى الظُّلْمِ، مَنْحَرِفُونَ عَنِ الْحَقِّ، جَمَّةٌ عِيُوبُهُمْ وَمَسَاوِيُهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَصْلِحُونَ بِغَيْرِ الْعَنْفِ وَفِي مَقْدَمَتِهِمْ لَفَيْفُ الْمُتَفَذِّينَ وَالْحَاكِمِينَ)).⁽⁶⁷⁾

وكان يرى أن مكانة الشاعر وكيانه ((لابيني بالمديح، وتقبيلا الأيدي ومداراة هذه المجموعات المختلفة المنحرفة! ولذا فانه لم ير وسيلة أنجع لإقامة هذا الكيان، وفرضه فرضاً عليهم لا رغبة في انزال العقاب والسباب عليهم؛ بل حباً في إقرار الواقع وإعلانه، ويجب أن لا يغيب عنا ان في مجموعات الناس، وهناك كثير ممن يشارك دعبلاً ويشاطره الرأي من لا يمكن تقويمهم وتوجيههم بغير المناهضة والمعارضة)).⁽⁶⁸⁾

٢- دَوَافِعُ سِيَاسِيَّةٍ، تَمَثَّلَتْ فِي التَّمَرِّدِ وَالثَّوْرَةِ عَلَى ظُلْمِ السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ

لعلنا لأجانب الصواب إذا قلنا أن دعبلاً الخزاعي رائد الهجاء السياسي في العصر العباسي الأول، مؤكداً رؤية أحد الباحثين المعاصرين ((إذ هو شاعرٌ متمردٌ من طراز خاص، استوعب مسؤوليته الاجتماعية، ومكانته المتميزة بين شعراء الشيعة؛ فأشار إلى مواضع الفساد والتزلف، مستخدماً أساليب مختلفة للتعبير، لعل الطابع الساخر أهم وأبرز هذه الأساليب في شعره السياسي، إذ اتخذ هذا الشاعر الكبير السخرية منهجاً فكرياً ولغوياً))⁽⁶⁹⁾، أثرت في مضامينه الشعرية، وفي أسلوبه على السواء كانت هناك أسباب و دوافع شتى حمل الشاعر على أن يعطي لشعره طابعاً سياسياً ساخراً، كما كان عصر دعبل يطغى بالفوضى والاضطراب والصراع، والمنازعات من الناحية السياسية للاستيلاء على الخلافة، وبالظلم والجور والاستبداد على محبي أهل البيت، وما كان لدعبل إزاء هذه الأمور إلا أن يلعب دوره الرسالي في معارضة النظام السياسي الفاسد، ففرى أنه أحسن أن السخرية سلاحٌ تتمتع بميزة، وهي سرعة انتشارها بين طبقات المجتمع المختلفة، فلذلك جنح إلى طابع ساخر حتى يؤثر شعره في المتلقين، وينتشر بسرعة بالغية في الأفق.

ومن الأحداث الخطيرة التي واجهها العصر العباسي، ولفتت انتباه المؤرخين خلافة إبراهيم بن المهدي، فبعد أن قتل الأمين في بغداد كان المأمون لا يزال في مدينة طوس التي اتخذها عاصمةً له، فرشحت حاشية القصر في بغداد عمّ المأمون المغني المشهور إبراهيم بن المهدي للخلافة، نرصد دعبل يصور هذه الحادثة في شعره قائلاً:⁽⁷⁰⁾

نَعَرَ ابْنَ سَكَلَةَ بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ
إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُضْطَلِعاً بِهَا
وَلْتَصْلَحَنَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لِرِزْلِ
أَنْيَ يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ
فَهَذَا إِلَيْهِ كُلُّ أَطْلَسَ مَائِقِ.
فَلْتَصْلَحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ الْمُخَارِقِ.
وَلْتَصْلَحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ لِلْمَارِقِ.
يَرِثُ الْخِلَافَةَ فَاسِقٌ عَنِ فَاسِقِ.

تشير هذه الأبيات إلى مهاجمة دعبل كل من بايع إبراهيم، واتهمهم بالحماقة والبلادة، وأنكر عليهم تسليم الخلافة للفاسق، أما البيتان الأخيران فهما في بيتا الهزء والسخرية؛ لأن الشاعر يعتقد أن الخلافة إذا صحت

67 ديوان دعبل بن علي الخزاعي: ص ٥٨.

68 المصدر نفسه.

69 السخرية السياسية في شعر دعبل الخزاعي، ص ٥.

70 ديوان دعبل بن علي الخزاعي، ص ٤٧.



لإبراهيم، فولاية العهد تكون المخارق وتصلح فيما بعد لزلازل والمارق، وكلهم من مغني ذلك العصر، وقد عبّرت تلك الصورة الفنية عن مدى التمرد والثورة ضدّ الظلم والفساد.

المحور الثاني: اتجاهات الهجاء في شعر دِعْبِل الخزاعي، تحليل لنماذج تطبيقية

يُعدُّ الهجاء أحد أهم الأغراض الشعرية، ليس في الشعر العربيّ فحسب؛ بل في الأدب العالمية الأخرى، وقول أي شاعر في هذا الغرض يُعدُّ أمراً طبيعياً إذا لم يفرط فيه، أما إذا كان هذا الغرض هو الأكثر نصيباً مقارنةً مع الأغراض الأخرى فإنّ ذلك يشكّل ظاهرة ملفتة للنظر، لها توجهاتٌ منطقيّة قائمة على الأدلّة والبراهين والحجج المقنعة، وهذه الحالة لا تنطبق على الهجاء فحسب؛ بل تشمل الأغراض الشعرية الأخرى.

وقد فرضت طبيعة البحث في هذا الموضوع الغوص في أعماق ديوان دِعْبِل بن علي الخزاعيّ لنجدَ واضحاً وجلياً غرض الهجاء في شعره ماثلاً؛ مما جعله يشكّل ظاهرة واضحة للعيان منحه البعض لقب الهجاء، بذئ اللسان، وقال عنه الدكتور عبد الكريم الأشر: ((غضب دِعْبِل وهجاؤه لا يقف في طريقيهما شيء))⁽⁷¹⁾، كما أشار الدكتور شوقي ضيف لذلك قائلاً: ((والحق أنّ الهجاء طبعاً ركب في نفسه حتى لنراه يهجو بجانب كلّ من أسدى إليه صنيعه، زوجته، وأخاه زيناً، وأهل مدينة فم؛ بل الناس جميعاً)).⁽⁷²⁾

وعلى هذا الأساس لابدّ من الوقوف عند أبرز اتجاهات الهجاء في شعر دِعْبِل الخزاعيّ، وتشخيص الأسلوبية الفنية التي وظّفها لطرح مضامينه الهجائية، والتعبير عن أفكاره وميوله ومعتقداته.

الاتجاه الأول: النفسي والأخلاقي

من الحقائق المسلم بها في الأدب عموماً أنّ النفس هي مصدر الإلهام، وأعمال الإنسان وتصرفاته وأقواله تنعكس على موهبته التعبيرية عمّا يجول في خاطره، فكلّ ما يصدر عن الإنسان من سلوكٍ يرجع إلى نفسيته وذاته، وبما أنّ الأدب جزءٌ من ذلك السلوك؛ فلا بدّ من وجود مؤثراتٍ نفسيةٍ يظهر صداها في الأدب، أو الترابط الوثيق بينهما، إذ إنّ ((العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات؛ لأنّ ليس هناك من ينكرها، وإنّ النفس تصنع الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس، و النفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب))⁽⁷³⁾، وعلى الأظهر فإنّ نفسية الشاعر دِعْبِل الخزاعيّ كانت شديدة السخّط على الآخرين، ناقمة على المجتمع متسائمة منه، فهو يرى أنّ الناس لا ينتفع بهم إلا بالقوة والقسوة، فكان ينظر نظرة عدائية للآخرين.

قال أبو خالد الخزاعي الأسلمي لدِعْبِل: ((ويحك قد هجوت الخلفاء والوزراء، ووترت الناي جميعاً، فأنت دهر كله شريد طريد هارب خائف! فلو كفت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك؟ فقال: ويحك إني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم، وليس كلّ من شرفته شرف، ولا كلّ من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك، فإذا رأك قد أوجعت عرض

71) نصوص مختارة من الأدب العباسي: الدكتور عبد الكريم الأشر، ص 189.

72) العصر العباسي الأول: د. شوقي ضيف، ص 323.

73) التفسير النفسي للأدب، ص 13.



غيره وفضحته اتقاك على نفسه، وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المقذع أخذ بضع الشاعر من المديح المضرع !!

قال أبو خالد: فضحكت من قوله وقلت: والله هذا مقال من لا يموت حتف أنفه⁽⁷⁴⁾.

هذا النصّ الحواري يثبت بما لا يقبل الشك رؤية دعيّل النفسية والأخلاقية لكيانه وشهرته التي لا يمكن أن تبنى بالمديح والتذلل للآخرين؛ بل كان يراه يبني بالهجاء، وان تحقّق شهرته، وذياع صيته بين الآخرين يكون بواسطة الهجاء والسبّ والقذف.

أضف إلى ذلك اعتباره الأخلاقي الذي يدفعه إلى أن يتخذ من الهجاء وسيلة دفاعية يحيط بها نفسه، وتجعل الآخرين يخشونه ويخافون سلاطة لسانه، وفحش أقواله، وبالتالي يتقيه الناس ولا يتعرض له أحد، فقد كان يعيش في عصر مضطرب تتصارع فيه الأهواء، ويعترك الخير والشر في طباع أبنائه، وصار المرء لا يرد عنه السوء إلا لساناً حاداً، أو من منصبٍ خطير، أو مالٍ وفير.

لقد كان شاعرنا دعيّل على الأظهر يعاني من نفسية قلقية ومضطربة؛ وذلك واضح في شعره، فتارة يمدح، وتارة أخرى يهجو الذي مدحه ويسلبه كل فضائله النفسية وصفاته الخلقية والخلقية، وهذا الاضطراب والقلق لم يكن على مستوى شخص واحد مدحه ثم هجاه؛ بل تكررت هذه الحالة على مجموعة أشخاص يمدحهم، ثم بعد فترة يهجم عليهم ويصوب إليهم سهام الهجاء التي لن تخطي من توجه نحوه.

ومن أروع النماذج التطبيقية، ما أنشده في هجاء أخيه رزين بن علي الخزاعي يهجوهُ بكلّ مذمة، قائلاً من البحر الطويل، قافية الياء: ⁽⁷⁵⁾

مَهْدَتْ لَهُ وَدِي صَغِيرًا وَنُصْرَتِي وَقَاسَمْتُهُ مَالِي وَبَوَّأْتُهُ حِجْرِي.
وَقَدْ كَانَ يَكْفِيهِ مِنَ الْعَيْشِ كُلِّهِ رَجَاءً وَيَأْسًا يَرْجِعَانِ إِلَى فَقْرِي.
وَفِيهِ عُيُوبٌ لَيْسَ يُحْصَى عِدَادُهَا فَأَصْغَرُهَا عَيْبًا يَجِلُّ عَنِ الْكُفْرِ.
وَلَوْ أَنَّني أَبْدَيْتُ لِلنَّاسِ بَعْضَهَا لِأَصْبَحَ مِنْ بَصِقِ الْأَحْبَةِ فِي بَحْرِ.
فَدُونُكَ عِرْضِي فَاهْجُ حَيًّا وَإِنْ أُمْتُ فَأَقْسِمُ إِلَّا مَا خَرَيْتَ عَلَى قَبْرِي.

وما أنشده في هجاء زوجته، من البحر الكامل، قافية الراء: ⁽⁷⁶⁾

يَا رُكْبَتِي خَزِرٍ وَسَاقٍ نَعَامَةٍ وَرَبِيبٍ كَنَاسٍ وَرَأْسٍ بَعِيرِ.

⁷⁴ الأغانى: ج 18 / 28.

⁷⁵ الديوان، بتحقيق: الدجيلي، ص 27.

⁷⁶ المصدر السابق، ص 118.



يا مَنْ أَشْبَهَهَا بِحُمَى نَافِضٍ
قَطَاعَةٌ لِلظَّهْرِ ذَاتِ زَفِيرٍ.
صُدَّعَاكِ قَدْ شَمِطًا وَنَحْرُكَ يَابِسٌ
الْصَدْرُ مِنْكَ كَجَوْجُؤِ الطَّنْبُورِ.
يَا مَنْ مُعَانِقُهَا يَبِيْتُ كَأَنَّهُ
فِي مَحْبَسٍ قَمَلٍ وَفِي سَاجُورِ.
قَبَّلْتُهَا فَوُجِدْتُ لَدَعَةً رِيْقَهَا
فُوقَ اللِّسَانِ كَلْسَعَةَ الرَّنْبُورِ.

في هذين التّصنيفين أفصح دِعيلُ الخزاعيّ عن نفسيّة توافقة للنقد وإظهار المعاييب حتى مع أقرب أرحامه، وبهذا يشهدُ له القاصي والدّاني، فقد تمكّن بأسلوبية عالية. ولغة سهلة واضحة أن يشخص مظاهر نغمته على الآخر، مصوراً تصويراً فنياً الحال التي كان عليها أخوه، وزوجته، ومال إليه بعد ذلك من مصير، حدّده الشّاعر بالركون عنهما نتيجة مراهة منهما.

الاتّجاه الثّاني: السّياسي السّاخِر

أنّرت الأوضاغ السّياسية في شخصيّة دِعيلٍ تأثيراً قوياً نلمسُ صورته واتّجاهاته في الكَمِّ الهائل من النّقد السّاخِر واللاذع، وقد لعبَ الشّعر السّياسي المطبوع بطابع السّخرية دوراً خطيراً في ميدان السياسة بما يملك من تأثيرٍ وقدرٍ ساحرٍ على لفت الأنظار، وجذب الانتباه نحو الظواهر البارزة في نظم الحُكم الفاسدة، أو أخلاق بعض الساسة وانحرافاتهم

فالشاعرُ يهجو العباسيينَ موضحاً مظالم الحُكّام في آل بيتِ النبيِّ مُحَمَّدٍ (ﷺ)، وقد شاعت له أبياتٌ يهجو بها المأمونَ بعد إحصانه إليه، وأنسه به حتى كان أولَ داخلٍ، وآخرَ خارجٍ من عنده؛ بل هجا أباه الرّشيدَ أيضاً، وهو أولُ من كرّمه نكايّةً بابنه، بعد أن تأكّد أنّ المأمونَ سمّ الإمامَ الرّضا-عليه السّلام، عندما بلغَ الشّاعرُ من العمرِ خمسَ وخمسين سنةً، فأخذَ الموقفَ المعارضَ، وشرّع بأولٍ قصيدةً هجاءٍ لرأس الخِلافَةِ، مُفاجئاً المأمونَ بقوله الشّهير من البحرِ الكَامِلِ: (77)

أيسومني المأمونُ خطّةً جاهلٍ
أو ما رأى بالأمسِ رأسَ محمدٍ.
توفي على هامِ الخِلافِ مثلما
توفي الجبال على رؤوس القردِ.
إنّ التراتِ مسهّدٌ طلابُها
فاكفف لعابك عن لعابِ الأسودِ.
لا تحسبنُ جهلي كحلِمِ أبي فما
حلِمُ المشايخِ مثلُ جهلِ الأُمردِ.
إني من القومِ الذينَ سيوفهمُ
قتلتُ أخاكَ وشرّفتك بمقعدِ.
شادوا بذُكركَ بعدَ طولِ حُمولِهِ
وتنقذوكَ من الحضيضِ الأوهدي.

(77) المصدر السابق: ص ٨٩.



دِعْبِلُ يستهزأ متوعداً المأمون- وما أدراك من المأمون؟ سيأتيك بالأخبار من لم تزود! ويذكره مهدداً بقطع رأس أخيه محمد الأمين المخلوع، وستنزل السيوف على الهامات، كما تنهال الجبال على الأرض المرتفعة الغلظة (القردد)، فطلاب الثارات طريقهم ممهد، فكفف لعابك المسموم كلعاب (الأسود) الحية العظيمة، كأنما يلفت نظره لسم الرضا، أما بقية الأبيات بما فيها من سخرية وفخر وتوعد بالتهديد والاستعلاء فواضحة؛ ولكن على من صبَّ رهبتها؟ على المأمون، وهو من أعظم الخلفاء العباسيين، إن لم يكن أعظمهم إطلاقاً، بل أعظم الخلفاء الإسلاميين بعد صدر الرسالة، وملوك الإنسانية قاطبة، فلو ركزنا على كلمة (الحَضِيضِ الأوهْدِ) التي كَتَفَتِ الصراعَ المريرَ بينَ الأخوين، والعقدَ النفسيةَ المكبوتةَ في لا وعيِ (الأمين) والمجتمع.

وهذه الأبيات دليلٌ ساطعٌ على أن الأمر ليسَ بشخصيٍّ ومصلحيٍّ، وإنما أمرٌ عامٌّ، ومصلحةُ الأمةِ مُقدَّمةٌ على مصلحةِ الأفرادِ، وعلى الآخرينَ احترامُ عقائدِ الناسِ ومبادئهم اتجاه الشخصياتِ العامة، وهذا نهجُ الأممِ المتحضرةِ في زماننا المعاصر.

الإِتْجَاهُ الثَّالِثُ: الاجْتِمَاعِيَّ وَالْقَبْلِيَّ

من المُسوِّغَاتِ المرصودةِ لكثرةِ أشعارِ دِعْبِلِ في غرضِ الهجاءِ، ما ذهبَ إليه الاصفهانيُّ في أغانيه إذ وَصَفَ دِعْبِلَ بأنَّه: شاعرٌ متقدِّمٌ مطبوعٌ هجاءٌ خبيثٌ اللسان، لم يسلم منه أحدٌ من الخلفاء ولا وزراءهم ولا أولادهم، وما ذهبَ إليه الدكتور الشكعة مؤكِّداً ماسبقَ بقوله: ((لقد كان دِعْبِلُ يعيشُ الهجاءَ كما يعيشُ المرءُ حياته، وأن دِعْبِلًا هجاءٌ محترفٌ يقولُ الهجاءَ هوايةً ويصنعهُ احترافاً))⁽⁷⁸⁾، ولنا في ذلك رأيٌ نُضيفُه لهذه المُسوِّغاتِ، وهو الشجاعةُ والجرأةُ، والثباتُ على المبدأ الذي يؤمنُ به شاعرُنَا، فلا يحيدُ، ولا يُدَعْنُ، ولا يُجاري، ولا يُداهنُ؛ وإنما يطلقُ لسانه وصوتهُ الشعريُّ إلى الفضاءِ الرَّحْبِ مهما كان ثمن ذلك، وهذه السمةُ ينبغي أن يتخلَّى بها كلُّ شاعرٍ يريدُ أن ينتمي إلى صوتِ ضميره وكيانه الداخليِّ، فلا يتخلَّى عن قناعاته الذاتيةِ والشخصيةِ لضغوطِ أو مغرياتِ، يُضافُ إلى ما ذكرَ ما رصدناه من تأثيرِ واضحٍ للبيئةِ والعاداتِ القبليةِ التي عاصرها دِعْبِلُ أدت إلى توجيهِ الهجاءِ في شعره؛ حتى أنه كان يرى أن المجتمعَ أنتشرَ فيه الكذبُ، وعمَّ الرياءُ وفسدَ الزمانُ، وراجتْ سوقُ الدجلِ والنفاقِ والخيانةِ، ونشأ الحسدُ والخبثُ والخديعةُ ولذائدُ البهائمِ، وضاعت الأعراسُ، وفسدتِ الأخلاقُ، ولم يرَ أن هناك إصلاحاً لهذه الأوضاعِ إلا عن طريقِ التعرُّضِ لها وهجاءِ أصحابها.

ومن أبرز القضايا التي نبه إليها دِعْبِلُ في هجائه، هي قضيةُ الجوارِ، فقال هاجباً في بيتين من البحر الوافر، قافية الرّاء: (79)

أرى منّا قريباً بيتَ زورٍ وزورٌ لا يزورُ ولا يزَارُ.

ولا يُهدي ولا يُهدى إليه وليسَ كذاك في العربِ الجوارُ.

وهذا اللونُ من الهجاءِ نجدهُ عندَ دِعْبِلِ إلى درجةٍ من التحليلِ والعمقِ، ففي أبياته التي تتناولُ الموضوعاتِ الاجتماعيةِ ليسَ هدفهُ التخفيفُ مما هو فيه من ضيقِ جوانحِ نفسه فحسب، وإنما قصدَ إلى التنبيهِ والإيقاظِ

78) الشعرُ والشعراءُ في العصرِ العباسيِّ، ص ٢٤٧.

79) الديوان: ص ٧٦.



بأسلوب البحث الاجتماعي القائم على أساس المقارنة والموازنة؛ لبيان ما في الحياة من مفارقات وانحراف، ففي هذا المجتمع الهائج القلق كان دِعْبِلُ يُنْشِدُ أَهَاجِيَهُ وَيَسْخَرُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ عَاصَرُوهُ، فَعَاشَ سَاخِطاً نَاقِماً، حَاقِداً عَلَى تَصْرِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَهِيَ هِيَ ذَا يَهْجُو أَحَدَ الْبُخْلَاءِ، فَقَالَ فِيهِ مِنَ الْبَحْرِ الْوَافِرِ، قَافِيَةُ اللَّامِ: (80)

أَتَقْفَلُ مَطْبَخاً لَا شَيْءَ فِيهِ مِنْ الدُّنْيَا يُخَافُ عَلَيْهِ أَكْلُ.

فَهَذَا الْمَطْبَخُ اسْتَوْتَقَّتْ مِنْهُ فَمَا بَالُ الْكَنِيفِ عَلَيْهِ قُفْلُ.

وَلَكِنْ قَدْ بَخَلْتِ بِكُلِّ شَيْءٍ فَحَتَّى السِّلْحُ مِنْكَ عَلَيْهِ بُخْلُ.

لقد كان البخلُ وما يزالُ صفةً ذميمةً، وعادةً كريهةً، ويبدو أن دِعْبِلَ عمل ما باستطاعته لمحاربة هذه الصفة بشعره، وليس ذلك فحسب؛ بل نجده قد هجَا النَّاسَ كَافَةً، حيث يقول من البحر البسيط، قافية الدال: (81)

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بَلَّ مَا أَقْلَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا.

إِنِّي لِأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا.

وقد أثارت هذه التوجّهات حفيظة دِعْبِلَ وشاعريته، وأدت إلى حدوث ثورة نفسية وشعرية على الآخرين، فلجأ دِعْبِلُ إلى الهجاء كأسلوب للتعبير عن معاناته ومعارضته واحتجاجه على الواقع، فهذه الدوافع أدت به إلى أن يتناول أغلب أمور الحياة، أو كلها إن صحَّ التعبير بواسطة نظرة فاحصة، مع إيمانه العميق بأن هؤلاء النَّاسِ لا ينفَعُ فيهم إلا القول الشديد والفاحش؛ لأنهم قد قلبوا الحقَّ باطلاً والعدلَ اعوجاجاً، والصلاحَ فساداً، والعلمَ جهلاً.

وهكذا الحال في جميع اتجاهات الهجاء في شعر دِعْبِلَ الخُرَاعِيِّ، فقد تابع هجاء الآخرين بواسطة أساليب القذف والشتيم، ومال دِعْبِلُ إلى هذا اللون الهجائي كثيراً فنراه يوظف فيه الصور المقيتة والذميمة يرمي بها مهجويه، وقد كان لهجاء دِعْبِلَ هذا سبباً في اقتراب أسلوبه ولغته من اللغة اليومية المتداولة، والأسلوب المتبادل بين النَّاسِ، وهذا اللون يكون عادةً شعبيّ النزعة والأسلوب، واضح الدلالات، يتميز بمحاولة جمع أكبر مشاهد من الصور غير اللاتقة والقبیحة مع ملاحظة تكرارها عند أكثر الشعراء؛ لأنها ملك النَّاسِ جميعاً وليست من ابتكارات الشعراء، فهم يأخذونها ويأخذون معانيها من خلال الاستعمال اليومي، واللغة الدارجة.

الخاتمة والنّاتج

توصّل الباحث في نهاية جولته العلمية إلى جملة من النتائج التي شكّلت موجزاً يستقرئ مضامين البحث، ويثبت الآتي:

80 المصدر السابق: ص ٥٩.

81 المصدر السابق: ص ١٣.



- ١- يكادُ يُجمَعُ مؤرَخو الأدبِ أنَّ لِدِعْبِلَ منزلَةً رَفيعةً في العِلْمِ، والأدبِ، والشِّعرِ، والفضلِ، فقد كانَ شاعرُنَا كاتباً، وناقداً، ومؤرِّخاً، ومُحدِّثاً، وعالِماً بالأدبِ، واللغةِ، وأيامِ العربِ.
- ٢- دَفَعَتْ دِعْبِلَ الخُزاعيُّ عقيدهُ دينيةً راسخةً تمثلُ نقطةَ الارتكازِ ومحورَ الدائرةِ، وهي موالاتِهِ لِأَلِ بيتِ رسولِ اللهِ (ﷺ).
- ٣- يَعمُكُشُ شِعْرُ دِعْبِلَ وجهَةً نظرهِ العقائديةِ في فِهمِ التَّشيعِ، والتعبيرِ عن سماتِهِ الفكريةِ باعتباره عقيدهً مقدَّسةً، ووجهَةً ملتزمةً بالمبدأ.
- ٤- مَسيرةُ الهجاءِ مَعَ دِعْبِلَ الخُزاعيِّ طويلةٌ رافقتهُ حتى آخرِ لحظاتِ حياتِهِ إلى حدِّ شَكْلِ فيهِ الهجاءُ صفةً بارزةً لازمتَهُ، فقيلَ عنه: هَجَاءٌ، مُقذَعٌ، بَدِيءُ اللِّسانِ، مُولَعٌ بالهَجْوِ، لم يَسَلِمْ مِنْهُ أَحَدٌ.
- ٥- اختلفتِ الموضوعاتُ التي تناولها دِعْبِلُ في هجائه؛ وذلك لكَثرةِ المسوِّغاتِ المُوجبةِ، وأهمُّها: تدهورُ أوضاعِ الحياةِ العامَّةِ في أغلبِ مجالاتها، والواقِعُ السيِّءُ الذي كانَ يسودُ الحَيَاةَ في ذلكَ العَصْرِ.
- ٦- أثارتِ توجَّهاتِ الهجاءِ حفيظةَ دِعْبِلَ وشاعريتهِ، وأدتْ إلى حدوثِ ثورةِ نفسيةٍ وشعريةٍ على الآخرينَ، فلجأَ دِعْبِلُ إلى الهجاءِ كَأَسلوبٍ للتعبيرِ عن معاناتِهِ ومعارضتِهِ واحتجاجِهِ على الواقِعِ.
- ٧- الهجاءُ عندَ دِعْبِلَ أكثرُ الفنونِ الشعريةِ تطرِّقاً، حيثُ يَمثلُ النسبةُ الأكبرَ في شعرِهِ، وبِهِ اشتهرَ بينَ شعراءِ عَصْرِهِ؛ وبلغَ مجموعُ القصائدِ ومقطوعاتِ الهجاءِ (مائةٌ وثمانين) قصيدةً ومقطوعةً من أصلِ (مائتين وسبعٍ وتسعين) قصيدةً ومقطوعةً، وهذا يشكِّلُ أكثرَ من ٣٠ في المائةِ من مجموعِ تطرِّقه لبقيةِ الأغراضِ الشعريةِ.
- ٨- اتَّخذتِ اتِّجاهاتُ الهجاءِ السِّياسيِّ في شعرِ دِعْبِلَ الخُزاعيِّ طابعاً ساخراً في كثيرٍ من جوانبِهِ، وكانَ ذلكَ سلاحاً بيدهِ لمقاومةِ الظُّلمِ والجورِ، كما أنَّه كانَ مَظهراً من مَظاهرِ المُقاومةِ الشَّعبيةِ والنَّمردِ على النظامِ السِّياسيِّ في العَصْرِ العباسيِّ الأوَّلِ.